الفصل الثالث

الحيـاة الداخلية فى قصور اسماعيل

فى سراى عابدين . استقبال الزائرات . فى السرايات الاخرى . فى سراى الوالدة « القصر العالى » . الجوقات الموسيقية والغنائية والتمثيلية

كنت أسمع فى أواخر عهد اسماعيل أخباراً عن الحياة الداخلية فى قصوره ، وكنت أعدها خيالا أو مبالغاً فيها على الأقل ، فتحدثت الى حماتى ، زوجة الفريق راشد راقب باشا ، الذى استشهد فى حرب الحبشة ، وشقيقتها حرم محمد بك عبيد ، أحد زعماء الثورة العرابية ، واحدى كبيرات « القلفاوات » الموجودة للان على قيد الحياة ، وكلهن من معتوقات اسماعيل . وكانت حماتى ذات مكانة خاصة لدى البرنسيسات فكانت تعرف ما لا يعرفه غيرها ، فحصلت على ما يجعلنى مطمئنا لما اذكره فى هذا الباب

فى سراى عابدين . الروايات التى تتناقلها الألسن عن أن سرايات اسماعيل كانت مملوءة بالآلاف من الجوارى والراقصات والمغنيات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية أو الوترية ، مبالغ فيها. بل لم يكن موجودا فى سراى اسماعيل الا جوقة وترية خاصة بالزوجة الثالثة له ومعها مغنيات

كان اسماعيل يقيم أغلب أوقاته فى عابدين مع البرنسيسات زوجاته الأربع حتى زواج ولى عهده توفيق باشا ، فقد انفصلت والدته بعد زواجه وأقامت فى سراى القبة وذلك عقب صدور الفرمان السلطانى بجعل ولاية مصر وراثية فى اكبر أولاد اسماعيل. وقد أشار السلطان على الخديو بأن يعقد على والدة توفيق فصدع بالامر فصارت الزوجة الرابعة.

الزوجة الرابعة لاسماعيل والدة توفيق

أما البرنسيسات الثلاث فكانت تقيم كل واحدة منهن في « بلك » ـ وهو مسكن خاص مستقل ـ ولكل منهن « قلفاوات » توزع عليهن الوظائف المختلفة من « خازندارة وچماشرجية ... الخ » وكان للقلفاوات خادمات خصوصيات من الجوارى السود ، وفتيات شركسيات ، يدربنهن للقيام بما تقوم به القلفاوات اذا ما كبرن

أما اسماعيل فكان له « بلك » تقفل أبوابه عند دخوله في المساء وكانت له أيضاً حاشية خصوصية من المحظيات والجوارى

وكان سموه يتناول الطعام مع البرنسيسات على الطراز الأوروبى. وكان « العشى باشا الأسطى ابراهيم » ـ الذى خلف طاهيافرنسيا فى القصر ـ والدمحمودباشافهمى وكيل دائرة المغفور لها الوالدة ، يرسل الأطعمة المخصصة للخديو ، على سنة سلاطين آل عثمان ، فى أوان ملفوفة بالقماش ، ومختوم عليها بالشمع الاحمر ، الى غرفة متصلة بالحرم فيتسلمها محمد بك الناغى « السفرجى » الخصوصى لاسماعيل ، ثم يخرج من هذه الغرفة فتتسلمها أربع « سفرجيات » من الجوارى تفك أختام الاطعمة وتقدمها إلى المائدة . وهذا فى الاوقات التى تسمح لسموه بتناول الطعام مع البرنسيسات .

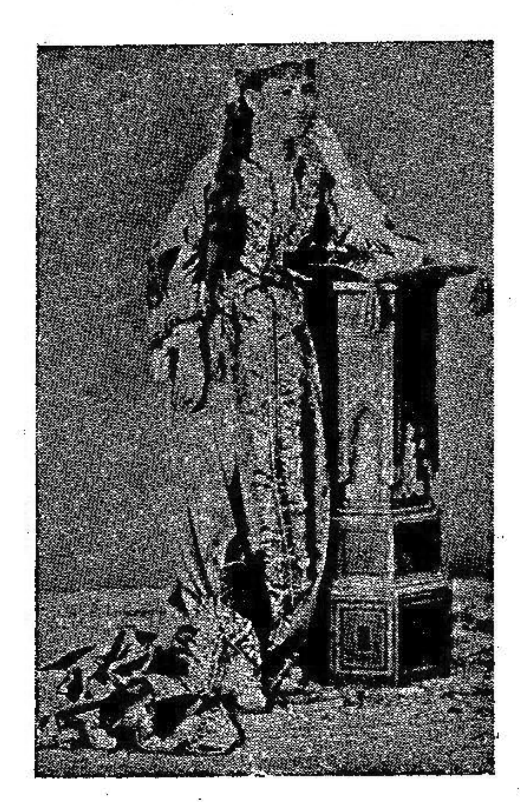
وكانت تقدم الاطعمة فى أوان من الفضة ، الا فى المناسبات الخاصة فكانت من الذهب (١) . ومن الأطعمة المشهورة فى السراى صنف « الرز الخديوى » المصنوع بخلاصة الرءوس الضأن أو البقرى ، والديكة الرومية بكيفية مخصوصة

استقبال الزائرات . كان استقبال الزائرات سواء كن من الأفرنج أو أهل البلاد ، بان يتقدم الأغا ، ويساعدهن فى النزول من العربة ، ويرافقهن إلى باب الحريم. وهنا تأتى جوار مدربات ليتسلمن منهن « اليشمق والفراجية » أو المعاطف ، ويرافقنهن إلى « الصالون » فى الدور الاسفل ، وهو مؤثث بالأثاثات الفرنسية الفاخرة . ثم ترشد الزائرات الى « الصالون » الخصوصى للاميرات بالدور الثانى . وفى الاستقبالات الهامة تتقدم الزائرات احدى القلفاوات ، فى زى رجل بملابس مزركشة ، وكانت تختار ذات وسامة وقد رشيق طويل ، تحمل فى يدها عصا مفضضة غليظة . فتسير بين أيديهن الى حيث البرنسيسات ، وكان يطلق عليها اسم (الشاويش)

وكانت الاميرات يلبسن الملابس الحريرية الفاخرة ، ذات الألوان الزاهية والأذيال الطويلة فى زى افرنجى ، وكن يجلسن عند الاستقبال بجوار بعضهن ، وتقدم الزائرات الى

(١) وقد حمل اسماعيل معه حين سفره من مصر الاطقم الذهبية الثمينة وكانت فى مخزن فى الجزيرة

كل واحدة منهن الوصيفة الخاصة بالترجمة عند وجود الأجنبيات . وكان يقوم بهذه المهمة بالتناوب وصيفتان هما قوبسز خانم وچاره سزخانم




قوبسز خانم « الوصيفتان » چاره سز خانم

ثم تقدم القهوة فى فنجان ذى ظرف مصوغ من الأسلاك الذهبية الرفيعة على أشكال جميلة ومرصع بالماس ، وكان يسمى « شغل شفتشى أو سودانى »

ولقد كانت الداخلة لاول مرة فى سراى عابدين من الزائرات تدهش لمنظر الجوارى اللائى يستقبلن الزائرات فى ملابسهن الفخمة ، وتتساءل : أحقاً هؤلاء مملوكات ! !

أما فى الحفلات الكبرى ، فى الأعياد وأفراح الانجال ، فكانت البرنسيسات يتزين بأبهى زينة من الملابس المزركشة بالجواهر ، مما لا يشاهد حتى عند الملكات الأوربيات (كما يرى القارىء فى الصور الثلاث لزوجات اسماعيل)



شُهْرَتْ خانم افندى الزوجة الاولى



چنانير خانم افندى الزوجة الثانية

فى السرايات الاخرى . وكان اسماعيل ينتقل بعض الاحيان من عابدين إلى إحدى السرايات الاخرى فى الجزيرة أو الاسماعيلية أو الجيزة . وكانت الاميرات ترافقه فيها وكذلك كان للخديو فى كل من هذه السرايات « بلك » مخصوص تقيم فيه «القلفاوات» الخصوصيات والمحظيات

أمّا كيف كانت زوجات اسماعيل يعشن على وفاق مع انهن ضرائر ، فضلا عن وجود محظيات كثيرات له. فقد علمت أن الغيرة لم تكن لدرجة احداث شقاق بينهن فى الغالب . واذا حدث شيء من ذلك كان « خليل اغا» «باش اغا والدة اسماعيل» يقوم بتلافيه. والفضل فى ذلك يرجع لاسماعيل فانه عقد على من كان يعتقد فيها الرزانة والعقل الراجح ، والمحافظة على المقام العالى الذى يرفعها إليه ، فكن لآخر حياتهن محترمات موقرات من الجميع



چشمْ آفت خانم افندى الزوجة الثالثة



فائقه هانم متبناة الزوجة الثالثة
« وهى الآن زوجة حضرة صاحب السعادة محمد عزت باشا »

وقد كانت الزوجة الثالثة لاسماعيل ذات مكانة خاصة لديه ، وكانت تتمنى لو رزقت خلفاً ، فلما لم يقدر لها ما تمنته فكرت فى أن تتبنى لها بنتاً ، وقد وقع اختيارها على فائقة خانم لما رأته فيها من صفات طيبة ، واخلاق فاضلة

والدة الخديو اسماعيل . كانت فى شبابها جميلة الصورة ، وقد بقى أثر هذا الجمال مدة حياتها ، وكانت تحب السرور والانشراح . وقد أقامت مع حاشيتها الكبيرة فى سراى الزعفران بالعباسية

وقد تركت الوالدة هذه السراى بعد أن شيدت سرايا فخمة متسعة مطلة على النيل ، فى نقطة حى «جاردن سيتى» الحالى. فى هذه السراى كان يوجد «طقم» موسيقى ، كالموجود فى آلايات الجيش ، مؤلف من أربعين عازفة لهن مديرة برتبة الاميرالاى، وعلى صدرها نيشانان . وهى التى كانت تدير بعصاها الفضية هذا الطقم . وكان أفراد هذه الجوقة ترتدى البنطلون والجاكته ذات الازرار المذهبة من الجوخ الاحمر المزخرف « بالقصب » وتلبس على رأسها طربوشاً

وفى أيام الاعياد والمواسم والاستقبالات الكبيرة وفى أفراح الأنجال السابق الكلام عليها ، كانت الموسيقى تعزف فى « كشك » من الخشب متصل بالحريم ، وعند دخول الزائرات تعزف بالسلام ، وبالأدوار العربية والتركية والأفرنكية . وكان يوجد فى البهو الداخلى فرقة أخرى موسيقية وترية مصحوبة بمغنيات مصريات وتركيات

بالنبراويل المزركشة بالقصب ولهن أصوات جميلة فيطربن الزائرات ؛ وفى مكان آخر كانت توجد فرقة راقصات فى أحسن زى وكلهن من ربات الجمال ؛ وكان يوجد فوق ذلك فرقة لتمثيل روايات مضحكة (أورطه أويون) ويوجد بينهن من يمثلن الرجال

من ذلك يتبين أن الأميرة خوشيار خانم افندى والدة اسماعيل ، كان لها غرام بالفن الجميل ؛ وكانت تنتقى الجوارى الحسان ، وتأتى لهن بالمعلمين والمعلمات مصريين وأتراكا وأجانب . ولا مبالغة اذا قيل أن هذه السراى كانت تحوى من الجوارى الحسان واتباعهن السودانيات ما يبلغ الالف عداً

وهؤلاء الجوارى كن يشترين من بعض الأتراك الذين كانوا يأتون بهن من الاستانة ؛ وأغلبهن من أصل شركسى ، يأتون بهن صغار السن ، ويربونهن ويعلمونهن ثم يبيعونهن للسرايات وللكبراء . أما أميرات البيت الخديوى فيرسلن أحدى القلفاوات المعتادة انتقاء الجوارى ، فتطلع على أجسامهن ، وتختبرهن فى ما تعلمنه ، وتنتقى من تصلح وتشتريها . وفى بعض الأحيان كان يوصى « اليَسرجى » عندوجود (بضاعة طيبة): أن يجلبها للسرايات ؛ وكانت كل برنسيس تحب أن توجد خير ما يكون من هذه الجوارى لتنال زيادة الحظوة لدى اسماعيل

الطعام فى سراى الوالدة . كل شيء فى هذه السراى كان أميل للطريقة الشرقية ، فكانت تجلس الوالدة مع من يوجدن من البرنسيسات والزائرات غير الأجنبيات على (شلت) حشايا مغطاة بقماش مزركش بالقصب توضع على الأرض بهيئة دائرة وفى وسطها كرسى مغطى بنفس الغطاء المزركش ؛ وتوضع فوقه صينية من الفضة وأدواتها كذلك إلا فى المناسبات الخاصة ، فتكون جميعها من الذهب ؛ ويقوم بالخدمة جوار يرتدين اللباس الفاخر ، وفى يد بعضهن مذبة (منشة)

استقبال الزائرات . كان استقبال الزائرات لغاية باب الحريم ثم استقبالهن بالحاشية على النظام المتبع فى عابدين ، الا أنه يختلف فى جلوس الزائرات فى غرفة الاستقبال على مقاعد شرقية عالية ، على حين تجلس الوصيفات على حشايا « شلت » أرضية ، وتقدم للزائرات القهوة مثلما فى عابدين ؛ وكان يقدم لهن « شُبكات » التدخين لمن يدخنّ والشُبُك عبارة عن فرع من الياسمين رفيع ومجوف مدبب من طرفه ليوضع فيه حجر من الفخار الاحمر به التبغ ، وتحت الحجر يوضع طبق من الفضة (طبلية) . ثم تقاد الزائرات إلى غرفة استقبال الوالدة التى ترتدى الملابس الشرقية الثمينة وكانت ترحب بهن باحترام وبشاشة

ثم ترجع الزائرات إلى الصالون ويشربن الشربات أو « السوبيا » وبعدها يرافقهن الأغوات إلى الباب الخارجى